الباب الثاني

جمالية أسلوب الإنشاء الطلبي

حدود وأبعاد: مفهوم الإنشاء

الفصل الأول : أسلوب الأمر - وبلاغته وجمالياته

الفصل الثاني : أسلوب النهي - وبلاغته وجمالياته

الفصل الثالث : أسلوب الاستفهام - وبلاغته وجمالياته

الفصل الرابع : أسلوب التمني - وبلاغته وجمالياته

الفصل الخامس: أسلوب النداء - وبلاغته وجمالياته

obeikandl.com

حدود وأبعاد؛ مفهوم الإنشاء:

اتضح لنا من مفهوم الجملة الخبرية وأغراضَها وأضربها أن مضمُونها لا يتوقف على النطق بها إلا إذا نزل الخبر منزلة الإنشاء، أي لا يتحقق بنطقها - غالباً - حدوث فعل ما. فلو قلنا: نجح محمد فالنجاح تحقق، ولا يتوقف على إخبار المتكلم به... وكذلك عليه قول المتنبي حين أخبرنا بمجيء جيش العدو الكثير العدد لحرب لسيف الدولة؛ إذ ملأ عدده الشرق والغرب، وتجّهز بكل أنواع السلاح من خيل وسيوف ورماح ودروع، حتى تسمع له جلبة وأصواتاً تبلغ نجم الجوزاء:

أَتَوْكَ يَجرُّونَ الحديد كأَنَّهم سَرَوْا بجيادٍ ما لهُنَّ قَوائمُ

خَمِيْسٌ بشرق الأَرْضِ والغَرْبُ وفي أُذُن الجوزاء منْهُ زَمَازم

ثم أخبرنا بانتصار سيف الدولة كما في قوله:

ضَمَمْتَ جناحَيْهم على القَلْبِ ضَمَّةً تموتُ الخَوافي تَحْتَها والقَوادمُ

بضَرْبٍ أَتى الهَاماتِ والنَّصرُ غائب وصار إلى اللَّبَّات والنَّصْرُ قادمُ

فالشاعر يتحدث عن معركة سيف الدولة التي انتصر فيها، ولم يرضه إلا فلْق هامات الأعداء لتجرؤهم على الظلم والاعتداء. فهو يخبرنا ببطولته واصفاً إياها وصف من شاهد المعركة وخبر أحداثها؛ وهو يرى سيف الدولة ثابتاً قوياً، والنصر محقق بيديه...

أما الإنشاء فإن مضمُونه يتوقف على النطق به، وطريقته تحدد نوع الطلب واستدعاء ما هو غير حاصل، ومن ثم ينفذه المخاطب...، كقوله تعالى في خطاب موسى وأخيه هارون؛ ﴿اذهبا إلى فرعون إنه طغى، فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكّر أو يخشى﴾ (طه 20/ 43). فتحقُّقُ مضمُونِ هذه الجملة متوقفٌ على النطق بها، ثم يتم تنفيذ ما تدل عليه... ومثله قوله تعالى في خطابه لموسى: قال: ﴿أَلْقِها يا موسى﴾ فكان الجواب لهذا الأمر قوله تعالى: ﴿فألقاها فإذا هِيَ حَيَّةٌ

تسعى ﴾(طه 20/ 19، 20).

ومن هنا قيل: إن تعريف الإنشاء هو: **كل كلام لا يصح أن يقال لصاحبه: إنه صادق فيه أو كاذب**... أو كل كلام لا يحتمل الصدق أو الكذب لذاته... وقال القزويني: "ووجه الحصر أن الكلام إما خبر أو إنشاء، لأنه إما أن يكون لنسبته خارج تطابقه أو لا تطابقه، أو لا يكون لها خارج. الأول الخبر، والثاني الإنشاء"[1].

فالإنشاء لا دلالة له قبل نطقه، ولم يقع سابقاً... ولهذا لا يطابق الواقع الذي تقدَّمه... والإنشاء في اللغة: الإيجاد، والخَلْق، أنشأه اللّه: خلقه، وابتدأه...

إذاً؛ فالإنشاء كلام لا يحتمل الصدق والكذب ويستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب... ولهذا لا يجوز أن يقال لقائله: إنه صادق أو كاذب...

أو لنقل إنه قائم على أساس الطلب الذي يطلبه المتكلم من المخاطب؛ فالكلام الإنشائي في مثل هذه الحال مرتبط بتصور المتكلم ومشاعره؛ وإن خرج عن أغراضه الحقيقية أحياناً إلى أغراض مجازية... وقد يكون في وسع المخاطب إنفاذ ذلك أو عدم إنفاذه... تبعاً للتفاعل الحقيقي الذي يتمتع به... كما دلنا عليه السياق القرآني في خطاب اللّه تعالى لموسى وهارون ويوضّحه الآيات التي تلت الآيتين السابقتين من سورة طه؛ في قوله سبحانه: ﴿قالا: ربنا إننا نخاف أن يَفْرطُ علينا أو أن يطغى❖ قال: لا تخافا.....❖﴾ ثم وقع الفعل الحقيقي بعد الطلب والتوضيح: ﴿قد جئناكَ بآيةٍ من ربكَ، والسلام على مَنْ اتبع الهدى﴾ (طه 45/20 ـ 47). وعليه الإنشاء الطلبي قسمان فقط: إيجابي (الأمر والتمني والاستفهام والنداء...) وسلبي (النّهي).

ولهذا كله أُخرج الإنشاء غير الطلبي عند القدماء من جملة الإنشاء الطلبي بقسميه وأساليبهما؛ لأنه لا يستدعي مطلوباً بعد النطق به... كالشرط والقسم، والتعجب والمدح والذم والرجاء، وصيغ العقود... وهناك من أخرجه من بحث الإنشاء كله. وإذا كنا نتفق معهم في مفهوم التصور البلاغي ـ على أننا

سنتناول هذه الأساليب في كتاب آخر يختص بأساليب بلاغية متنوعة تتجه إلى الجانب الجمالي بشكل مدروس وفعّال ـ وإذا كانت جملة من أساليب الإنشاء غير الطلبي تخرج من الإنشاء فإننا لا نطلق موافقتنا لهم في الشرط والقسم. فالجملة الشرطية، أو جملة القسم تدخل في الإنشاء الطلبي إذا كان الجواب فيها طلباً؛ وإلا فهي من الإنشاء غير الطلبي... ومن الباحثين من أدخلها كلها في الجملة الخبرية، ونحن لا نتفق معه.

ولا شيء أدل على رأينا من قولنا: (إن نجح محمد فأكرمه)... فالجملة الشرطية هنا جملة طلبية؛ لأن جملة الجواب استدعت طلباً وهو الإكرام وهي جزأ لا يتجزأ من جملة الشرط...

وكذلك قولنا في جملة القسم: (باللّه عليك كافئ خالداً)... فجواب القسم طلب من المخاطب أن يكافئ خالداً؛ فلما كان الإنشاء ـ لغة ـ الإيجاد لصيغة كلامية لا توجد دلالتها قبل النطق بها، فلا بد من تحقيق جواب القسم.

أما لو قلنا: (إن نجح محمد كرّمتُه)، أو (باللّه عليك لتكافئن خالداً)... فإن الكلام سيختلف عن الكلام السابق؛ ويصبح كلاماً إنشائياً لا يستدعي المتكلم إنفاذه بعد النطق به....

ومن هنا نقول: إن الإنشاء غير الطلبي -عامة-: هو كل كلام لا يستدعي مطلوباً للتحقق والإيجاد بعد النطق به. وهذا هو الفرق بينه وبين الإنشاء الطلبي؛ ولكنه يتفق معه من وجه آخر أنه لا يقال لصاحبه: إنه صادق أو كاذب.... فضلاً عن أن الشرط محوّل في الأصل عن طلب كقولنا للمخاطب: (إن تنجح أُكرمك)؛ وكأننا نقول له: (انجح أكرمك)... وكذا القسم بمعنى التوكيد أو ما يشبه الطلب.

وفي ضوء ذلك كله يمكننا أن ندخل أقساماً من الإنشاء غير الطلبي في مباحث الإنشاء عامة، وإن أخرجها القدماء منه، أما في ضوء عدم استدعائه

لمطلوب؛ فإنه يمكننا أن ندخله لأنه لا يحتمل الصدق أو الكذب... إذ لا يجوز أن نقول لقائله: (إنك صادق أو كاذب).

وإذا كان البلاغيون قد أخرجوا الإنشاء غير الطلبي من الإنشاء وأساليبه؛ لأن الأغراض المتعلقة به قد تبدو للمتسرع نادرة الصلة به، أو لأن أساليبه نقلت من معانيها الأصلية إلى غيرها فإن هذا برأينا أَدْعى بالدارسين إلى تناولها؛ لبيان جماليتها المرتبطة بالسياق الذي أخرجها في الدلالة من الجملة الخبرية إلى الجملة الإنشائية، وإن كانت الصياغة ما زالت تتبع صياغة أساليب الخبر... والنطق بها ليس مزية بحدّ ذاته ولكن المزية في الدلالة أو المقصود الذي تحمله الصياغة اللغوية البلاغية؛ وهي الصياغة التي توقع المتلقي في شراكها إن لم يكن عالماً بطبيعتها ووظائفها وأهدافها... وإذا كان المبدع /المتكلم/ المؤلف الأول قد غاب عنا فإن القراءة الواعية النقدية والبلاغية والجمالية هي تحدد دلالة الصياغة وإثارتها موضحة لنا أن هذه الصيغة تأخذ قيمتها بعد النطق بها، ثم إن المتلقي بما يملكه من ثقافة وقدرات يمكنه اكتشاف خصائصها... وهنا يكمن ثراؤها الجمالي... فهذا نمط فريد من الانزياح الدلالي يحتاج إلى وقفة متأنية لإدراك أبعاده كلها... وإذا كانت هذه الدراسة لا تتسع له، فعسى نخصه ببحث منفصل... أو يقوم به غيرنا...

obeikandl.com

الفصل الأول

أسلوب الأَمر وبلاغته وجمالياته

توطئة: مفهوم أسلوب الأمر

قَعَّد النحويون أسلوب الأمر في صيغة فعل الأمر وحده ونظروا إليه من جهة أحوال بنائه وارتباط الضمائر والحروف بتلك الأحوال...ووسّع البلاغيون دائرة أسلوب الأمر فربطوه بصيغ الطلب التي تدل على الأمر... وبهذا نظروا إلى روح اللغة؛ فقال العلوي في (الطِّرَاز) معرفاً صيغته: "هو صيغة تستدعي الفعل، أو قول ينبئ عن استدعاء الفعل من جهة الغير على جهة الاستعلاء"[2].

ومن ثمة توسع البلاغيون بصيغ أسلوب الأمر وقَعَّدوه - أيضاً - بقواعد بلاغية على وجه الحقيقة؛ ثم أوجدوا له صيغاً تخرج عن روح تلك القواعد فأطلقوا عليها ما عرف بالأمر المجازي؛ إذ سعَوا إلى دمج بنية الخطاب اللغوي ببنية المقاصد التي يتدبرونها في السياق.

أما أصحاب البلاغة القرآنية فما راق لعدد منهم فعل البلاغيين في هذا الشأن ورأوا فيه تجميداً للجملة البلاغية؛ ولا سيما المتعلقة بالقرآن الكريم... فالزمخشري مثلاً يعرف أسلوب الأمر بقوله: "طلب الفعل ممن هو دونَك وبعثُه عليه"[3].

والزمخشري نفسه الذي راعى قواعد البلاغيين لم يرَ رؤيتهم في أسلوب الأمر المجازي. فالأمر المجازي عنده قد يكون تشريعاً للناس، ولا يشترط فيه الاستعلاء؛ وقد يصوّر الحالة النفسية للآمر، وللمخاطبين؛ على اختلاف مكانة الآمر والمأمور وشرفهما... من دون أن يهمل كيفية وقوع الأمر ووظيفته. فالأمر أياً كان ينطوي على وظيفة نفسية أو اجتماعية أو سياسية أو أخلاقية أو

obeikandl.com

تربوية... أو عاطفية...

ولهذا كله فسنعرف أسلوب الأمر؛ ثم نبيّن أساليبه البلاغية ساعين إلى التوفيق بين البلاغيين في أصولهم التي رأوها وبين نظرة أصحاب الدراسات القرآنية في الأساليب المباشرة وغير المباشرة. فالأمر - وفق الجمع بين الرؤى الثلاث السابقة ووظائف كل منها مما يهدف إليه المتكلم - (هو طلب الفعل على وجه التكليف والإلزام بشيء لم يكن حاصلاً قبل الطلب وفي وقته على جهة الحقيقة أو المجاز) كقولنا: أَمْسِك نفسك عند الغضب. فمن أراده على الحقيقة جاز له ذلك، ومَن أوّله على المجاز لم يخب ظنُّهَ في إطار مفهوم المقاصد. فالقصد هو الجوهر الذي يَعتد به المتكلم، وعليه مدار التأويل، وحيثيات ما يطلق عليه مفهوم الجميل؛ بوصفه يعبّر عن إدراك الموضوع الجمالي الطريف، أو التطلع إليه. وحين نشير إلى هذا الأمر فلا يعني تغليب الدراسة الجمالية على حساب فن البلاغة وارتباطه بجملة من القضايا النقدية. وإذا كنا نعتقد – كغيرنا من المعنيين بالدرس البلاغي النقدي – بأن البنية اللغوية البلاغية لا تكتفي بذاتها في الدلالة؛ إذ تحتاج إلى سياقها المركوزة فيه فإننا نعترف -هذه المرة -بأن الصيغة مقصودة لذاتها بلاغياً ونحوياً، وكذلك هي بقية الصيغ؛ وإن لم تنسلخ من اللغة المؤلفة لتأخذ خصائصها كاملة.

الفصل الأول: أساليب الأمر

تحمل هذه الأساليب القصدية المباشرة ضمن الصيغ اللغوية والبلاغية التي اتفق عليها القدماء والمحدثون بما تدل على الأمر والوجوب، بمثل ما تنفتح على دلائل كثيرة عند القارئ، وتشكّل لديه مجموعة من المؤثرات والتفاعلات الوجدانية والعقلية، تبعاً لوعي كل أسلوب لذا فهي قسمان، أساليب حقيقية، وأخرى مجازية:

القسم الأول : أساليب الأمر الحقيقي (الأسلوب المباشر)

لم تختلف الدراسات البلاغية كلها في هذا النوع وفي صيغه؛ فهو طلب الفعل على جهة الاستعلاء من الأعلى إلى الأدنى على جهة الحقيقة والإلزام بفعله.... وينطبق عليه تعريف صاحب (الطراز) الذي أشرنا إليه سابقاً. وللأمر صيغ أربع تولد نشاطات عاطفية وحالات فكرية ثابتة ليست كثيرة التموّج وهي:

1 . **صيغة الأمر المعروفة :**

هي صيغة نحوية لا يختلف عليها إنسان يملك وعياً بها على اختلاف ألفاظ الأمر فيها. وعليه قوله تعالى: ﴿يا يحيى خُذِ الكتابَ بقوة﴾ (مريم 12/19) وقوله: ﴿فخذها بقوة وأمُرْ قومك يأخذوا بأحسنها﴾ (الأعراف 145/7) وكقوله: ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين﴾ (البقرة 43/2) وقوله: ﴿يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين﴾ (آل عمران 43/3)؛ فكل ما وضع تحته خط هو صيغة أمر. وهناك بلاغيون ذهبوا إلى أن صورة الأمر الحقيقي تحمل وجوبُ تنفيذ المضُمون بعد الطلب بشكل مطلق[4]. ولكن هذا الرأي غير دقيق؛ فالأمر قد يكون حقيقياً ولا يمكن تنفيذه؛ لأمر ما، وهو ما يجعله قريباً من الأمر المجازي كما في خطاب عامل المدينة مروان بن الحكم للفرزدق:

ودَعِ المدينـــــة، إنَّهـــــا مَرْهوبـــــةٌ واعمَـــدْ لمكَّـــةَ أَوْ لبَيْـــتِ المَقْـــدسِ

ألـــق الصـــحيفة يـــا فـــرزدق؛ إنهـــا نكـــراءُ مثـــلُ صـــحيفة المُـــتَلمِّسِ

فأفعال الأمر (دع، اعمد، ألق) لا يمكن تحقيقها وإن صدرت من الأعلى إلى الأدنى. ولعل وعي مثل هذه الصيغ يجعلها قابلة للقياس وهي ليست صيغاً عشوائية لغوياً ونحوياً؛ بلاغياً وجمالياً ولاسيما حين يجري تنويعها... فكل من يتأمل صيغ الأمر السابقة فإنه يدرك إنزالها في سياقها البلاغي والدلالي؛ لتأخذ رتبتها في التأثير الجمالي على الصعيدين الذاتي والموضوعي.

2. **الفعل المضارع المقرون بلام الأمر:**

تتألف بنية الصيغة من (لام الأمر) المتقدمة على الفعل المضارع أياً كان لفظه وشكله مفرداً أم مثنى أم جمعاً... ومثاله الفعل (ليُنْفق ـ ليوفوا ـ ليطوفوا) من قوله تعالى: ﴿ليُنْفق ذو سَعَةٍ من سعته﴾ (الطلاق 7/65)؛ وقوله: ﴿وليُوفُوا نُذورَهم؛ وليَطَّوْفُوا بالبيت العتيق﴾ (الحج 29/22)؛ والفعل (ليجلّ ـ ليفدح) من قول أبي تمام:

كذا فليَجِلَّ الخَطْبُ وليفدحِ الأَمْرُ فليس لعَيْنٍ لم يَفِضْ ماؤُها عُذْرُ

فعلى الرغم من أن صورة الفعل المضارع تثير حركة ما مع اقترانها بلام الأمر إلا أنها تحقق وحدة كلية ذات اتجاه خلاق في الخطاب حافلة بالتأثير، وإن كانت على سبيل الاستعلاء الحقيقي. فهي تتيح المجال واسعاً للتفكير لاستنادها إلى فعَّالية التقدير والإجلال...

3. **اسم فعل الأمر:**

هو كلمة تدل على ما يدل عليه فعل الأمر، ولا تقبل علامته... وهو يلزم صيغة واحدة ـ غالباً ـ مع المفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث إلا ما لحقته كاف الخطاب فيراعى فيه المخاطب في الحالات السابقة، مثل (عليكَ، دونكِ، رويدكِ) فيمكن أن نقول: عليكما ـ دونكما ـ رويدكما.... عليكم ـ دونكم ـ

رويدكم...) فضلاً عن أن التنوين يلحق بعض صيغه فيفيد معنىً إضافياً وإن لزم حالة واحدة؛ مثل (مَهٍ، وصَهٍ، وإيهٍ). وقيل في (هاك) - بمعنى خذ - إنها تتجرد من الكاف وتصبح (ها)، ويجوز أن تلحقها الهمزة، وتتصرف؛ فنقول: للواحد (هاءَ)، وللواحدة (هاءِ)... ولجمع الذكور (هاؤم) كقوله تعالى: ﴿هاؤم اقرؤوا كتابيَهْ﴾ (الحاقة 19/69) أي خذوا. وكذلك ذهب قوم إلى عدم إلزام (هاتِ) حالة واحدة، بل يتصرف؛ ويخاطب به المذكر والمؤنث؛ كما في معلقة امرئ القيس؛ وكقوله تعالى: ﴿هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ (البقرة 111/2). ومثله اسم الفعل (هلمَّ: تعال) فنقول: (هلموا إلينا) وإن جاء بصيغة واحدة في قوله تعالى: ﴿قد يعلمُ اللّه المُعَوِّقين منكم والقائلين لإخوانهم: هَلُمَّ إلينا﴾ (الأحزاب 18/33).

ولعل مراجعة هادئة للأمثلة البلاغية السابقة توحي بجمالية التشكيل المعدول عن الأصل، ما يجعل المتلقي ينجذب إليها بوصفها صيغة جديدة ذات إيقاع مثير للنفس والعقل... فكل متلق يتساءل في ذاته عن سبب هذا الانزياح في البنية مع العلم أنه يمكنه استعمال الفعل الأصلي...

أقسام اسم فعل الأمر: وهي ثلاثة أقسام [1] أسماء مرتجلة: (أي وُضعت في أصلها كذلك) ومنها (آمين: بمعنى استجب) و(صَهْ: اسكت) و(مهْ: اكفف) و(بَلْهَ: دَعْ أو اترك) و(حيَّ: أَقبلْ) و(إيهِ: ازدَدْ، أو أقبل)...

2. أسماء منقولة:

هي الأسماء المنقولة عن جار ومجرور أو ظرف أو مصدر أو تنبيه إلى دلالة الأمر، ما يعني أن دلالتها تتغير، وكذلك الإعراب كقولنا: (عليكَ نفسَك): أي الزمها؛ وعليه قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أَنفسَكم لا يضرُّكم مَنْ ضَلَّ إذا اهتديتم﴾ (المائدة 105/5)، وقولنا: (إليكَ عني: أي تنحَّ، وابتعد)... ومن أمثلة ما نقل عن الظرف قولنا: (دونكَ الكتاب: أي خذه) و(دونك النمر:

أي ابتعد عنه) و(مكانَك: أي أُثبت). ومن أمثلة ما نقل عن المصدر قولنا: (رُوْيَدك: تمهَّل) و(بَلْه الشَّرَّ: اتركه ـ).. وقلنا أيضاً: ينقل اسم الفعل من كلمات تفيد التنبيه كما في (ها) كقولنا: (ها الكتابَ: أي خذه). وهذه الأسماء والتي تليها لا تقع إلا في الأمر، فهي لا تقع في الماضي والمضارع...

وقد وقعت شواهد في الشعر لأكثر ما سقناه، ومنها قول المتنبّي:

رُوَيْـدَكَ أَيُّهـا الملـكُ الجليـلُ تَـأَيَّ وعُـدَّهُ مِمَّـا تُنيـلُ

وقال الإمام علي (كرم الله وجهه):

عليـكَ بِبِـرِّ الوالـدين كليهمـا وبِـرِّ ذوي القُرْبَـى وبِـرِّ الأَباعـدِ

فلفظ (عليك) اسم فعل أمر بمعنى (الزم)، وبهذا انتقل دلالة وإعراباً من الجار والمجرور إلى اسم فعل الأمر، بينما انتقل (رويدك) في البيت الأسبق من المصدر إلى اسم فعل الأمر.

3. أسماء معدولة:

هي أسماء عُدلت عن فعل الأمر؛ كقولنا: (نَزَالِ) و(حَذَارِ) فهما معدولان عن فعلي (انزل) و(احذر) وكذلك قولنا (قَتَالِ) و(ضَرَاب) وكل صيغة من الثلاثي على وزن (فَعَالِ) وكذلك هي من فوق الثلاثي مثل (دَرَاك) من فعل (أدرك) و (بَدَارِ) من (بادر)... فصيغة (فَعالِ) أو أي صيغة أخرى معدولة إنما تؤصل تحولاً في الشعور لاختلاف بنية الكلمة؛ وإن كان الاشتقاق من مادة واحدة. فتحوّل الإيقاع الصوتي الصرفي ليس تحولاً جامداً أو مجرد تغيير لا قيمة له في الحضور اللغوي والبلاغي... فالتحول اللغوي البلاغي يدل على تمثيل دلالي استقرائي لمعنى لم يكن مختزناً بالفعل، وإلا لما عَدل المتكلم إلى الصيغة الجديدة؛ أي إن المتكلم اختار صيغة الأمر التي تعبر عن مراده كقول أمير المؤمنين عمر لكعب الحبار:

ومـابي حـذار المـوت إنـي لميّـتٌ ولكـن حَـذارِ الـذنب يتبعـه ذَنْـبُ

4. المصدر النائب عن فعله:

هو اللفظ الدال على الحدث غير مقترن بالزمن؛ متضمن أحرف فعله لفظاً، كقوله تعالى: ﴿وبالوالدين إحسانا﴾ (البقرة 83/2)؛ فلفظ (إحساناً) ناب عن فعل الأمر (أَحْسِن) وقد أراد (أحسنوا إلى الوالدين إحسانا)؛ وكذا هو المصدر (صَبْراً) ناب عن (اصْبِر) في قول قطري بن الفجاءَة (ت 78 هـ):

فصَبْراً في مجال الموت صبراً فما نَيْلُ الخلود بمُسْتطاعِ

ولفظ (وقوفاً) ناب عن (قف) في كل من قول امرئ القيس:

وقوفاً بها صحبي عليَّ مطيَّهم يقولون: لا تَهْلِك أسىً وتجمَّلِ

وقول أَشْجع السُّلَمي:

وقوفاً بالمطيِّ ولو قليلاً وهَلْ فيما تجودُ بِهِ قَليلُ؟

فكل شاعر طلب من أصحابه الوقوف، فأناب المصدر عن الفعل، وهو يريد (قفوا...). وقد يقال: إن المصدر يقدر بعد فعل (قفوا) ونرى أن عدم التقدير أولى للعلة السابقة، ولأن العرب يقيمون كلامهم على أساس الإيجاز والتكثيف، في الوقت الذي يدخل الكلام في إطناب لا حاجة له في المعنى... ومراعاة سياق الحال تقتضي هذا الأسلوب لإيقاظ الوعي بما يحس به؛ وكأن الشاعر يطلب إليهم الإسراع في تلبية رغبته؛ ما يؤكد أن المصدر النائب عن فعله كان على وجه طلب الاستعلاء الحقيقي...

وهذا كله يثبت أن أسلوب الأمر يعبر عن إرادة المتكلم في مقتضى ما يذهب إليه من إيداع المعنى المناسب على جهة المراد منه.

القسم الثاني: أساليب الأمر المجازي

تبين لنا أن المعنى الحقيقي كما وضع له الأصل اللغوي يظل معبراً عن مراد المتكلم؛ وقدرة استيعاب المخاطب على تنفيذه ولكنه على جهة الطلب من الأعلى... ولكن أسلوب الأمر لا يتقيد بمعيارية التركيب النحوي؛ وإنما تنزاح فيه اللغة في صيغ الأمر الحقيقي الأربع إلى اتجاهات جديدة، كما تقول الدراسات الأسلوبية فلا تقتضي الإلزام بتنفيذ الطلب المضمّن في الجملة على وجه الإيجاب... وإنما يُسْتَخرج المعنى من القرائن الدالة في السياق؛ ولهذا قد يعبّر فيه عن معنى حاصلٍ قبل الطلب... وهذا يقرّبه من الإنشاء غير الطلبي في الدلالة.

وإذا كان الأمر الحقيقي يُلقى على وجه الاستعلاء فإن الأمر المجازي لا يشترط منزلة الاستعلاء بين المتكلم والمخاطب أو بين الآمر والمأمور... فقد يكون الآمر أدنى منزلة ويستعمل صيغة الأَمر... ولهذا قيل: إنه ليس على الوجه الحقيقي للأمر[5] وقد أوضح ذلك السكاكي في (مفتاح العلوم) ومن جاء بعده[6].

وبذلك اتسعت دائرة المعاني التي يدور عليها الأمر المجازي؛ وضمّت الآمر والمأمور (المتكلم والمخاطب) ومضمون الأمر الذي لا يُسْأل المأمور عن تنفيذه... أي المرسِل والمتلقي والرسالة، في الوقت الذي تنحرف فيه الدلالة عن صورة التحديد والتعيين.

وحين عظمت دلالته ثراءً فإن أساليبه كانت كثيرة التنوع في الإيحاء مما يدل على جمالية طرائق الأمر بأشكال لافتة للنظر. فالمرء لا يتعامل مع الصورة اللغوية بمعزل عن السياق واستحضار معانيه في إطار الانحراف أو الانزياح وهو المجاز في عرف القدماء، [7] ويدخل فيه الانزياح غير المباشر ذو الإيحاء البعيد. وله أنماط تزيد على العشرين؛ وفق ما نبينه تباعاً.

1. الدعاء:

الدعاء: اسم ومصدر ومثله (الدعوى) وفعْله دعا يدعو... وقد سمّاه ابن فارس (المسألة) ويتجه الآمر[8] (المتكلم/المرسل) بكلامه إلى مأمور (مخاطب/متلقٍ) أعلى منه مكانة على صِفة التضرّع والضَّعف والابتهال والرجاء والاستكانة واستعطافه، أو الانتقام من المخاطب. فمن التضرع قوله تعالى: ﴿رَبِّ أوزعني أَنْ أَشكُرَ نِعْمتك التي أَنعمَتْ عليَّ﴾ (النمل 19/27) وقوله: ﴿ربَّنا آتنا في الدنيا حَسنة وفي الآخرة حسنةً وقِنا عذابَ النار﴾ (البقرة 201/2). ووقع فيه معنى الاستكانة والضعف كما وقع الدعاء بالانتقام كما بيّنه الزمخشري [9] في قوله تعالى: ﴿ربنا اطمس على قلوبهم، واشدد على قلوبهم﴾ (يونس 88/10)، لأنهم كفروا وضَلُّوا ولا مطمع في إيمانهم... ومن الاستكانة والاستعطاف قول النابغة الذبياني يخاطب النعمان بصيغة (مهلاً) و(فداءً):

مَهْلاً، فِداءً لكَ الأقوامُ كلُّهمُ وما أُثَمِّر من مالٍ ومِنْ وَلَدِ

وقال كعب بن زهير يستعطف الرسول الكريم ويمدحه؛ ويبدأ بصيغة (مهلاً):

مَهْلاً، هَداكَ الذي أَعطاكَ نافلةَ القرآن فيها مواعيظٌ وتَفْصيلُ

وقال المتنبي يخاطب سيف الدولة يرجوه ويتوسل إليه أن يخلصه من كيد الحساد بصيغة (أَزِلْ):

أَزِلْ حَسَدَ الحُسَّاد عني بكَبْتهمُ فأنتَ الذي صَيَّرْتَهم لي حُسَّدا

فالمتنبي هنا لم يكتف بالأمر المباشر وإنما لجأ إلى أسلوب التعليل غير المباشر لإظهار رغبته في الانتقام من حساده الذين كثروا كثرة مفرطة حتى أثقل الأمر عليه.

2. الالتماس:

الالتماس مصدر؛ وفعله (التمس)، وهو شبيه بالدعاء والرجاء من جهة

الفعل والحدوث؛ لكن البلاغيين خصّوه عادةً بأسلوب الأمر بين المتساوين في المنزلة والقدر على سبيل الاحترام والتلطف، كقولنا للذين يماثلوننا: (هاتوا الكتاب)... ويمثله امرؤ القيس في قول الذي فُسِّر على أنه خطاب الاثنين، سواء كان المخاطب (المثنى) ـ هنا ـ موجوداً أم متخيّلاً:

قِفَانبكِ من ذكرى حبيبٍ ومَنْزِلِ بسِقْطِ اللِّوى بين الدَّخُول فحَوْمَلِ

ومثله قول الشاعر الآخر في خطاب المثنَّى:

يا خَليليَّ خلّياني وما بي أو أَعِيْدا إليَّ عَهْدَ الشبابِ

أما الالتماس الذي يتوجه به المتكلم إلى المخاطب المفرد والمساوي له بالمنزلة والقَدْر فمثاله قول الشاعر:

فقُلْتُ: أَجِرْني أبا خالدٍ وإلا فهبني امرأً هالكا

فهذا الأسلوب وما ماثله من الأمر المجازي أمكن في التأثير النفسي لِمَا يستبطنه من رغبة جامحة لدى المتكلم في تلبية طلبه، ولكنه حَريص على التلطف بطلبه من صاحبه... وربما لا يتحقق فينتهي إلى التمني.

3. **التمني:**

التمني أصله من (المُنى) والمفرد (المُنْية)، وهو كل ما يتمناه الإنسان... ثم صار كل طلب لا يرجى تحققه؛ ويبقى مجرد أُمْنِيّة في نفس المتكلم.

ويمكن أن تكون محادثة الأطلال من هذا النَّمط وإن اشتملَت على شيء من الدعاء لها. ولهذا تصبح الوظيفة النفسية والعاطفية أكثر تأملاً عند المتلقي بما تثيره من الوَجْد والألم الداخلي؛ كقول عنترة:

يا دارَ عَبْلةَ بالجِواءِ تكلَّمي وعِمِي صباحاً دارَ عبلةَ واسلمي

فالفِعْل (تكلمي ـ عمي ـ اسلمي) من باب حديث النفس الذي تمناه الشاعر رجاء تحقيق ما يرغب فيه لأطلال محبوبته التي أحزنه ما آلت إليه من خراب... فلوحة الطلل أمامه تثير الشفقة في نفسه... وكذا قول امرئ القيس:

ألاعِمْ صباحاً أيُّها الطللُ البالي   وهل يَعِمَنْ مَنْ كان في العُصُر

وقال أيضاً يخاطب الليل؛ متمنياً أن يزول ما حَلَّ به من الهم، ولكن - هيهات - فللزمن مقداره:

أَلا أيُّها الليلُ الطويل ألا انجلِ   بصُبْحٍ وما الإصباحُ منكَ بأَمْثَلِ

وتمنى أبو العلاء المعري أن يزوره الموت وسط هذه الحياة الذميمة التي يعاني منها؛ فكل ما فيها بائس مؤلم مليء بالتعاسة والشقاء حتى بات الموت أفضل منها... ولما كان القضاء والأجل بيد الله -سبحانه- لجأ إلى صيغة التمني؛ آمراً الموت بزيارته؛ وساخراً من نفسه كيف تقبل على الحياة ودهره لا يرضي عدواً ولا صديقاً؛ فقال:

فيا موتُ زُرْ؛ إنَّ الحياة ذميمةٌ   ويا نَفْسُ جِدّي؛ إنَّ دهركَ هازلُ

فجمالية فعل الأمر (زر -جدي) لم تنحصر في عملية الانزياح الدلالية -فقط- بل اتجهت إلى سياق بعيد التأثير، إذ استطاع استدرار عطف المخاطب لحاله، فأيقن بأن الموت أفضل من الحياة...

4. التهديد والإنذار:

تتخذ صورة الأمر شحنة انفعالية متعاظمة في نفس المتكلم الآمر كما تثير فيه أفكاراً شتى حين يتجه إلى المتكبرين والمُدَّعين والعاصين والمنافقين والمقصرين... ليرتدعوا... كقوله تعالى: ﴿تَمتَّعُوا فإنَّ مصيركم إلى النار﴾ (إبراهيم 30/14) وقوله: ﴿اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير﴾ (فصلت 40/41). ويبين فيه الآمر سخطه على المأمور - كما وضحه الزمخشري[10] - ويتوعده مهدداً على سبيل المبالغة؛ فإذا لم يرَ منه إلا الإباء والتصميم، قال له: أنت وشأنك، افعل ما تشاء.

وعليه قول الشاعر:

إذا لم تخشَ عاقبة الليالي   ولمْ تَسْتَحي، فاصنَعْ ما تَشاءُ

obeikandi.com

فهذا الأسلوب عند المتكلم يستعمله من أعيته الحيلة في إصلاح الآخر؛ إما لعناده أو تكبره وصلفه، وإما لجهله، أو عجزه... وحينما يكون المخاطب على مثل هذه الحال فإن المتكلم يكون على حال أخرى حين يكون مملوءاً بالشفقة والخوف على المخاطب... ولذلك تقلقه الحال التي وصل إليها، ما يجعله يخاطبه بهذه الصيغة. وعليه قول الشاعر الآخر:

فطلقها فلست لها بكفء وإلا يَعْلُ مفرقك الحسام

ولا يشترط في هذا الأسلوب منزلة ما بين الآمر والمأمور، ويظل السياق وحده الدليل عليها.

5. التحدي والتعجيز:

هو طلب شيء ما من المخاطب لا يَقْدر عليه؛ لأنه ليس بوسعه تحقيقهُ وإن كان -أحياناً- يملك قدرات مادية ومعنوية عدة كقوله تعالى: ﴿وإن كنتم في ريبٍ مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ (البقرة 23/2) وقوله: ﴿يا معشرَ الجِنّ والإنس إن استطعتم أن تنفذُوا من أقطار السموات والأرض فانفذُوا لا تنفذون إلا بسلطان﴾ (الرحمن 33/55) وكقول المهلهل:

يا لبَكْرٍ!! أَنْشِروا لي كُليباً يا لبكرٍ أينَ؟ أين الفِرارُ؟

فكل أفعال الأمر (ادعوا - أتوا - انفذوا - أَنشِروا) حملت معنى التحدي المعجز فلا الكفار قادرون على إنشاء سورة مثل سورة في القرآن؛ ولا قوم المهلهل قادرون على إعادة كليب بعد موته... أما قول الشاعر:

أَريني جواداً مات هُزْلاً لعلَّني أرى ما تَرَيْنَ أو بَخيلاً مُخَلَّدا

فالفعل (أَريني) وَرَد على سبيل التعجيز في الإتيان بمثل ذلك وإن كان أصل المعنى ليس مستحيلاً، وعليه قول الآخر في (أرني):

أَرِني الذي عاشرتَه فوجَدْتَه متغاضياً لكَ عن أَقَلِّ عِثَارِ

فإحساس المتكلم بخذلان أصدقائه، ونكرانهم للجميل بصورة دائمة جعله ينزلهم منزلة أولئك الذين لا يحفظون وُدّاً؛ ومحال وجود إنسان -لديه- يتغاضى عن أقل هفواته...

6. **التسوية**: ليس هو الأسلوب البلاغي المقابل للإيجاز أو الإطناب؛ إنّما هو أحد أساليب الأمر. وهو طلبٌ على جهة المساواة بين أمرين لا على جهة التخيير بينهما؛ كقوله تعالى: ﴿اصبروا أو لا تصبروا﴾ (الطور 16/52) وقال المتنبي:

عِشْ عزيزاً أو مُتْ وأنتَ كريمُ بيْنَ طَعْنِ القَنا وخَفْقِ البُنودِ

ومنه قوله تعالى: ﴿وأَسِرّوا قولكم أو اجهروا به﴾ (الملك 13/67) ويدخل فيه قول الرصافي:

وأَحْسِنْ إلى مَنْ قد أَساء تكرُّماً وإنْ زادَ بالإحسانِ منك تَمَرّدا

والتسوية هنا في المعنى، فالشطر الثاني مساوٍ في المعنى للأول. وهو قريب من التخيير، ولكنه لا يماثله في طريقة المعادلة. وهذا كثير في الشعر العربي؛ وكلام المتكلمين لا يحصيه محص، وهو يحتاج إلى نَظَر قليل في صيغة (الأمر) وسياقها، وإن أفردت بذاتها...

7. **التخيير**:

التخيير مصدر وفعله (تخيّر) ويقال له (التمييز) ولا تشترط المساواة بين الأمرين المطلوبين لا في المعنى ولا في اللفظ والتركيب وهذا ما يفرّقه عن التسوية. وفيه يطلب إلى المخاطب أن يختار بين أمرين على جهة المعنى الحقيقي أو المجازي، كقولنا: (تزوج هنداً أو أختها) وقال البحتري:

فمَنْ شاء فليبخلْ، ومَنْ شاء فليَجُدْ كفاني نَداكم عن جميع المطالبِ

وقد يتساوى الأمران ولا بد من أن يختار المخاطب بينهما كقول بشار:

فَعِشْ واحداً أو صِلْ أَخاكَ فإنَّه مقارفُ ذَنْبٍ مرةً ومُجانِبُهْ

ونلمس في هذا الأسلوب والأسلوب السابق جمالية الوظيفة النفسية والاجتماعية في احترام إرادة المخاطب وعقله؛ فهو حر في تنفيذ الأمر.

8. الاعتبار والموعظة:

ويكون بأي صيغة من صيغ الأمر، على جهة الاتعاظ والعبرة؛ ما يقربه من أسلوب النصح... لذا فهو طلب على سبيل الموعظة والاعتبار، وليس غايته التنفيذ الفوري؛ وإن تضمّن الإشارة إلى الرغبة في تجنب فعل ما، أو الإقبال على فعل ما وتعزيزه، كقوله تعالى: ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾ (الحشر 2/59) وقوله: ﴿انظروا إلى ثمرِهِ إذا أَثمرَ﴾ (الأنعام99/6) وقوله تعالى: ﴿قل: سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قَبْلُ... ﴾ (الروم 42/30) وفي هذا المقام يقع قولنا: (اربأ بنفسك عن هذا العمل)

وهذا الأسلوب وما يتبعه يؤكد مفهوم الانزياح الدلالي، واللغوي، ومن ثم يثبت أن النفس البشرية مولعة بالتجديد والاستبدال؛ بمثل ما ترتاح إلى استمرار بعض الدلائل والقيم.

9. الدوام والاستمرار:

هذا أسلوب متعلق بالمتكلم والمخاطب على السواء والسياق يقتضي التفريق إن كان أحدهما المقصود. وفيه تكمن جمالية بلاغية خاصة ومثيرة. فهو طلب أمر على سبيل الترغيب في الاستمرار بالشيء ودوامه لدى المتكلم أو المخاطب؛ كقوله تعالى: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ (الفاتحة 6/1)؛ وقوله: ﴿يا أيها الذين آمَنُوا آمِنوا بالله ورسوله﴾ (النساء 126/4). فالآية الأولى تدل على أمر يفيد الدوام لدى المتكلم من الناس والمخاطب على السواء بينما الثانية موجهة للمخاطب ليثبتُ على الإيمان بالله ورسوله. وهو نظير النهي الدال على الاستمرار، ولكنه معاكس له في الدلالة. أما قوله تعالى: ﴿ربّ اشرح لي صدري، ويسّر لي أمري﴾ (طه 25/20 -26) فعلى أهمية الدعاء فيها فإننا نرى أنها تفيد المتكلم باستمرار المعنى... فجمالية الفعل الممتد في الزمن تكتسب

حيويتها من قيم الخير باعتبارها أجزاء من علم الجمال.

10. التعجب:

التعجب مصدر، وفعله تعجَّبَ، ويكون لاستعظام أمرٍ ما ظهر المزية. وهذا النمط يظهر من السياق بصيغ الأمر المعروفة كقوله تعالى: ﴿انظر كيف نُصَرِّفُ الآيات ثم هُمْ يَصْدِفُون﴾ (الأنعام 46/6).. ويستعمل بصيغ التعجب المخصصة بفعل الأمر وإن كانت دلالته للمضي، ويعرب إعراب الفعل الماضي، كقوله تعالى: ﴿أَسمِعْ بهم﴾ (مريم 38/19) وقول كعب:

أَحْسِنْ بها خُلَّةً لو أنَّها صدَقَتْ موعودَها ولوَانَّ النُّصحَ مَقْبولُ

فالتعجُّب يقع في نفس المتكلم من صفة ما في المخاطب، فيلجأ إلى أسلوب الأمر للدلالة على استعظامه لتلك الصفة، لذا تتحقق فيه جمالية الإثارة للوصول إلى اللذة الفكرية والنفسية وتنتج راحة وسعادة وهو غاية الجمال.

11. التلهيف والتحسُّر:

التلهيف يتعلق بالمخاطب لا المتكلم، بعكس التلهُّف... وهذا ضرب آخر من الأمر المجازي الذي يفيد التلهف عند المخاطب والتحسر لديه، بينما المتكلم يكون في حالة من الزهو والاستعلاء؛ كقوله تعالى: ﴿موتوا بغيظكم﴾ (آل عمران 119/3)، وكقول جرير:

موتوا من الغيظ غمّاً في جزيرتكم لن تقطعوا بطنَ وادٍ دونه مُضَرُ

فالأسلوب البلاغي (هنا) ليس مجرد انزياح تركيبي ودلالي؛ وإنما هو - أيضاً - انبثاق عاطفي متوتر ومتحفز يؤديه السياق البلاغي واللغوي، وهذا هي الجمالية التي يتفرد بها.

12. التهكُّم والسخرية والاستهزاء:

أسلوب بلاغي مجازي يأخذ دلالته من فعل المخاطب، في استقباح نتائجه، والتذمر منه بوصفه يمكن أن يحصل فعلاً... فهو نمط من الأساليب غير

المباشرة في التعبير. وقد كثر وروده في القرآن الكريم وأبرزه الزمخشري بشكل جيد[11]. ويتوجه فيه المتكلم إلى السامع أو المخاطب الغافل أو المعاند والمكابر أو المدَّعي...؛ كقوله تعالى: ﴿قل: فادرؤوا عن أنفسِكم الموتَ إن كنتم صادقين﴾ (آل عمران 167/3). فالله تعالى يتهكم ويهزأ من أولئك الذين قالوا: ﴿لو أطاعونا ما قُتلوا...﴾ في الآية نفسها؛ فجاء أسلوب الأمر ليَنْعَى عليهم موقفهم وكلامهم؛ وعليه قول أبي نواس:

فامضِ لا تَمْنُن عليَّ يداً مَنُّكَ المعروف مِنْ كَدَرِهْ

فالجمالية التي يتوخاها إنما تكمن في تحسين السلوك الذي يصدر عن المعاند، والغافل والمكابر، وكذلك تكمن في الشكل اللغوي.

13. الإهانة والتحقير:

هذا أسلوب يستند إلى الفعّاليات النفسية العالية عند المتكلم مفيداً مما لدى المخاطب من أوضاع مُزْرية في بعض الحالات، فيشتد التألم منه ويحس بالقبح يتجلى في سلوكه. لذا فهو أعلى شأناً في التأثير، وأعظم زراية من النمط السابق وأقل درجة من التبكيت؛ كقوله تعالى: ﴿أَلْقُوا ما أنتم مُلْقون﴾ (يونس 80/10). فعمل السَّحَرة صغير الشأن حقير أمام ما يملكه موسى (عليه السلام) وكقوله: ﴿ذُقْ إنَّك أنتَ العزيز الكريم﴾ (الدخان 49/44).. فالأمر في (ذُق) لم يكتف بالتهديد أو بالاستهزاء وإنما وصل إلى مرتبة التقريع والإهانة لذلك الكافر الذي لم يرتدع ولم يؤمن بأنه سيبعث في الآخرة... وعليه قول جرير في هجاء الراعي النميري؛ إذ يحقر منزلته ومنزلة قومه:

فغُضَّ الطَّرْفَ إنَّكَ من نُمَيْرٍ فلا كَعْباً بلغَتْ ولا كِلابا

وقال آخر:

أرى العنقاءَ تكبُرُ أن تُصادا فعَانِدْ مَنْ تطيقُ لـه عِنادا

وهذا الأسلوب والذي يليه لا يتحقق حدوثه بالضرورة إلا إذا كان الأمر إلهياً.

14 . **التبكيت أو التوبيخ**: التبكيت مُشاكل للتوبيخ في الدلالة، ولهما مرتبة واحدة تقريباً...

وهو أسلوب في التقريع القاسي والذم الشديد الوطء؛ ويُعَدُّ في المرتبة العليا من التجريح بالمخاطب كقوله تعالى: ﴿كونوا قردة خاسئين﴾ (الأعراف 166/7). إنه نوع من إذلال المخاطب عندما صَوَّرَهُ الله على هذه الهيئة المذلة، وكذلك قوله تعالى: ﴿كونوا حجارةً أو حديداً﴾ (الإسراء 50/17). فلما استبعد الكفار بعثهم من جديد بعد أن تصبح عظامهم رفاتاً جاء التبكيت لهم، وتوبيخهم بأن يبقوا على هذه الصورة المزرية... وأحسن الزمخشري في إبرازه،[12] أيما إحسان.

وهذا النمط في أسلوب الأمر أطلق عليه ابن فارس (التكوين)؛ ونحن نرى أن التكوين غير هذا؛ فالتكوين أشمل بكثير وأَعمّ مما ورد هنا[13]. وعليه قول الحطيئة في هجاء الزبرقان بن بدر:

دَعِ المكارمَ لا تَرحَلْ لبُغْيتها واقعُدْ فإنكَ أَنْتَ الطاعمُ الكاسي

فهذا أسلوب على غاية في الإقذاع والتوبيخ والتبكيت، فالمهجو ليس بقادر على فعل شيء من المكارم؛ إذ لا يقدر إلا أن يأكل وينام... وهو معنى يلوح للمبدع ومن ثم يتلقاه القارئ وفق الإيحاء الذي بني عليه، ويؤيده السياق اللغوي. والجوهر الجمالي يكمن في الهدف الظاهري والباطني على السواء؛ لأن الصورة تجمع بين العام والخاص وبن الخفي والجلي؛ أو الباطن والظاهر... وهذا كله يشي بأن الكلام البلاغي ليس محصوراً بفرضية دلالية ما في زمن ما، وإنما هو مفتوح على دلالة معنوية نفسياً واجتماعياً تحقق للمتكلم ما يصبو إليه من أسلوبه وهو عينه ما تعرضه الأساليب المتنوعة في جُزئياتها المتقاربة...

15 . **التكذيب مع التحدي**:

يتّجه هذا النمط إلى التكذيب مع التقريع، ويُفْهم تكذيب المخاطب من

obeikandl.com

السياق في أغلب الأحيان؛ كقوله تعالى في خطابه للملائكة الذين كانوا يظنون أنهم أحق بالاستخلاف في الأرض: ﴿أَنبئوني بأسماءِ هؤلاءِ إن كنتم صادقين﴾ (البقرة 31/2)؛ وقَرَّع اللّه بني إسرائيل ووبّخهم على كذبهم الذي يخفونه؛ فيزعمون أنهم يؤمنون بالآخرة فقال سبحانه: ﴿فتمنَّوا الموتَ إنْ كنتم صادقين﴾ (البقرة 94/2). فالأمر هنا يتجه إلى مجرد الأمنيّة، ولن يفعلوا؛ لكفرهم وعنادهم كما قال عَزَّ وجَلَّ: ﴿ولن يَتَمنُّوه أبداً بما قَدَّمت أيديهم﴾ (البقرة 95/2) وقال الفرزدق:

أولئك آبائي فجِئْني بمِثْلهِمْ إذا جمعَتْنا يا جريرُ المجامعُ

فهذا النمط البلاغي يجمع بين التفرد الذي يتصف به المخاطب وبين صورة تعميم فعله على كل من ماثله؛ ليصبح أنموذجاً للاعتبار... ومن هنا تتبع جمالية هذا الأسلوب المجازي؛ ومثله الأسلوب الآتي.

16. النصح والإرشاد:

هو طلب ما، لا إلزام فيه؛ وإنما يرمي فيه المتكلم إلى التوجيه والتأديب؛ نحو (كُلْ ممّا يليك) ونحو (دَعْ ما يَرْيبُك إلى ما لا يريبك) وكقوله تعالى: ﴿خذِ العفو وأمُرْ بالعُرْف وأَعْرِض عن الجاهلين﴾ (الأعراف 199/7) فاللّه سبحانه يخاطب رسوله بأن يأخذ الناس باللطف والرقة والعفو عن المذنبين، والأخذ بأحسن الأفعال؛ وألا يكافئ الجهلة بمثل أفعالهم... وكقول الشاعر:

كن ابنَ مَنْ شِئْتَ واكتسبْ أَدَبا يُغنيكَ محمودُهُ عن النَّسَبِ

وقال المتنبي في مدح سيف الدولة يبين فيه للناس كيف يقتدون به في محاربة الأعداء:

كذا فليسِرْ مَنْ طلبَ الأعادي ومثْلُ سُرَاكَ فليكن الطِلابُ

فكلام المتنبي أو غيره في هذا الأسلوب ليس مجرد استعراض لنصيحة ما وإنما هدف المتكلم التركيز على المعاني الجوهرية الكامنة فيه؛ ولا بد

للمتلقي -أياً كان زمانه -أن يتلقف الحكمة منها.

وقال أبو العتاهية يوجه النصح إلى كل من تولى أمراً بأن يكون رفيقاً بالناس:

واخفِضْ جناحَكَ إن مُنِحْت إمارةً وارغَبْ بنفسك عن رَدَى اللذّاتِ

وقال الشاعر ينصح بأخذ الحذر من الناس، وعدم الانخداع بالمظاهر:

وكنْ على حَذرٍ للناس تستُرُه ولا يَغُرُّكَ منهم ثَغْرُ مُبْتسمِ

وقال الشاعر:

عش ما بدا لك سالما في ظل شاهقة القصور

فجمالية هذا الشكل الفني البلاغي تتركز في التخصيص النوعي للفعل المطلوب اتباعه بمثل ما تتركز في استجلاب مكوناته النوعية التي تستغرق جملة من الأبعاد النفسية والاجتماعية ومثله الأسلوب الآتي .

17 . **التفويض والتسليم:**

قد يشتبه هذا الأسلوب بالإباحة لشدة تقاربهما ، بيد أن التفويض؛ على ما فيه من إثارة؛ يقوم على ضوابط مع المخاطب؛ ولو فُوّض بأمر من الأمور؛ أو سُلِّم له بالحكم ليفعله؛ أو ليُبتَّ فيه؛ كقوله تعالى: ﴿فاقضِ ما أنت قاضٍ﴾ (طه 72/20) وقوله: ﴿افعلْ ما تُؤْمَر﴾ (الصافات 102/37). وقوله: ﴿أَنْ أفيضوا علينا من الماءِ أو مما رزقكم اللّه﴾ (الأعراف 50/7). فهذا الأسلوب يستند إلى احترام المخاطب وإكرامه في حرية الفعل... لكنه فِعْل ليس على أساس التخيير بين أمرين، ولا هو إباحة بالمطلق؛ ولا هو مجرد محاكاة سطحية... بل هو مُكَوِّنٌ دقيق للفعل كما يدل عليه دقة التركيب وجودته... فالتفكير البلاغي -هنا -يدور في إطار مداورة كلامية دلالية بين المتكلم والمخاطب، وعلى المخاطب أن يدرك حدود التفويض والتسليم.

18 . المَشُورة:

وهذا نوع آخر من البلاغة الطريفة لأسلوب الأمر الذي يجعل فيه المتكلم مخاطبه مشاركاً له في الرأي، ويطلب إليه النصح أو المشورة... ولا يلزمه بإنفاذهما... فهو حر بالإجابة كقوله تعالى: ﴿فانظر ماذا ترَى﴾ (الصافات 102/37) فإسماعيل (عليه السلام) ترك الرأي لأبيه ليرى فيه الحكم الفَصل؛ فهو أعلم بما يفعله... وقوله: ﴿والأَمْرُ إليكِ فانظري ماذا تأمرين﴾ (النمل 33/27). وقال طرفة بن العبد (الديوان 167):

وإنْ نـابُ أَمْـرٍ عليـكَ التَـوى فشـاوِرْ لبيبـاً؛ ولا تَعْصِـهِ

ومن ثم فإننا ندرك قيمة الإرث البلاغي في صميم مقولات الثقافة العربية الداعية إلى حرية الرأي واحترامه عند المخاطب وهذا يعبر دائماً وأبداً عن عودة الثقافة إلى الينابيع الأولى لاحترام كينونة الإنسان.

19 . التكوين والإيجاد:

نوع من الطلب على غير جهة الإلزام يصور فيه المتكلم كيفية التكوين أو إيجاد الشيء أو حدوثه. وهو يقود المخاطب أو المتلقي إلى فضاء روحي فكري بعيد المقاصد ولاسيما حين يرتبط بروح الجماعة وعقائدها ومذاهبها. وأطلق عليه الزمخشري تصوير كيفية وقوع الحدث [12]. ولعل ما أثبتناه أكثر تعميماً وإثارة في صيغة الأمر... كقوله تعالى: ﴿وإذا قضى أَمْراً فإنّما يقول له: كُنْ فيكون﴾ (البقرة 117/2) ونحو هذه الآية في (آل عمران 47/3 ومريم 35/19 وغافر 68/40) وقوله: ﴿إنما أَمْرُهُ إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن فيكون﴾ (يس 82/36).

فالتكوين في أسلوب الأمر (هنا) يغاير ما ذهب إليه ابن فارس في التبكيت أو التوبيخ الذي سبقت الكلمة فيه. فجمالية الأسلوب ودلالته تعتمد على الطريقة أو الآلية في إحداث الشيء وتجسيده بصورة لافتة للنظر. فالصورة الجمالية المميزة لهذا الأسلوب تدخل السامعَ في تكوين جديد للخلق والصنع لا

obeikandl.com

يعرفه في واقعه المحسوس. وحين يتوقف علم الجمال في بعض اتجاهاته عند الصورة؛ فإن هذا الأسلوب يعبر بكل دقة عن الصورة الجوهرية المنتظمة لعملية التكوين الواعية، والمنطلقة من قدرة المتكلم على إبراز ذلك.

20. **الإباحة**:

الإباحة مصدر فعله (أباح). ونقول: أَبَحْتُكَ الشيءَ: أَحْللته لك، وأباح الشيء: أطلقه.

والمباح خلاف المحظور؛ إذ يُتْرك للإنسان أن يفعل ما يشاء. وهو أسلوب بلاغي يدخل في الأمر؛ ويشبه - نوعاً ما - التفويض والتسليم؛ ولكنه يتجه اتجاهاً بلاغياً أكثر حرية وتنوعاً... ما يشي بأنه يُشكِّل أنموذجاً مثالياً في التعامل بين المتكلم والمخاطب فتعزز الثقة، ثم يجسد طريقة مثلى للاقتداء بها. لهذا فإن وجْهَ الأمر يكاد يطمس فيه... وهذا ما يثيرنا فنياً في جماليته، كقوله تعالى: ﴿كلُوا واشربُوا حتى يتبيَّنَ لكم الخَيطُ الأبيضُ من الخيط الأسود من الفَجر﴾ (البقرة 187/2). فإذا كان اكتشاف الجمال يتركز في الإدراك السابق على التجربة، فإن هذا النص يقع في صميمه. فالله سبحانه أمر عباده بالصوم في أوقات، وأباح لهم الطعام في أوقات وترك لهم الحرية في الطعام والشراب إلى وقت معلوم.

أما **النَّدْبُ**؛ وفعله (نَدَب - يَنْدُب بمعنى الدعوة إلى أمر ما، فهو أدخل في أسلوب الإباحة وإن كان يدخل في أساليب أخرى. فأنا حين أحثك على أمر ما لا ألزمك بفعله. لهذا فإذا نَدَب المتكلمُ المخاطبَ لأمر ما فقد أباح له الحرية في الإجابة؛ كقوله تعالى: ﴿فإذا قُضِيتِ الصلاة فانتشروا في الأرض﴾ (الجمعة 10/62) وقوله تعالى: ﴿فإذا طَعِمْتم فانتشروا﴾ (الأحزاب 53/33). فبعد أن نُدبوا لأمر الصلاة في الآية الأولى أباح لهم السعي في الأرض وطلب الرزق، أما في الآية الثانية فبعد أن دُعي القوم إلى طعامٍ في منزل الرسول الكريم أُمروا بالتفرق وعدم المكوث في المكان... وأبيح لهم التوجه إلى حيث يشاؤون.... وقال

القزويني: "ومن أحسن ما جاء فيه قول كُثَيِّر:

أَسِيئي بنا أَو أَحْسِني لا مَلُومَةٌ لدينا، ولا مَقْلِيَّةٌ إِنْ تَقَلَّتِ

أي: لا أنت ملومة ولا مقليّة. ووجه حسنه إظهار الرضا بوقوع الداخل تحت لفظ الأمر حتى كأنه مطلوب، أي: مهما اخترت في حقي من الإساءة والإحسان فأنا راضٍ به غاية الرضا فعامليني بهما، وانظري هل تتفاوت حالي معك في الحالين"[13]. فالندب أسلوب في الأمر لا يستند إلى مبدأ الاحتمال ولكن إلى الإباحة.

ومثله **الإذْن**: أَذِن له في الشيء إِذناً: أباحه له ليفعله بحريته الكاملة. فلو قلنا للطارق: (ادخل) فقد أبحنا له الحرية في الدخول... ولو وافقنا الطالب على عمل ما وقلنا له: (افعل ذلك)... لأذنا له أن يعمل ما يشاء تاركين له الحرية المدركة لفعل الشيء.

وإذا حمل أسلوب الإباحة شيئاً من التعظيم للمخاطب أطلق عليه **(الإكرام)**؛ وفعله أكرم: أي شرَّفَ؛ كأن نبيح للقوم الدخول في حكم يُجْزَون به حُسْناً، كقوله تعالى: ﴿ادخلوها بسلام آمنين﴾ (الحجر 46/15).

وكأن الإكرام قرين (الامتنان) وهو يدخل في الإباحة (أيضاً) ولا ينفصل عنه، كقوله تعالى: ﴿وكلوا مما رَزَقكم اللّهُ حلالاً طيّباً﴾ (المائدة 88/5) وقوله: ﴿وأَنفقوا مما رزقناكم من قبلِ أَن يأتي أحَدَكم الموتُ﴾ (المنافقون 10/63).

وأياً ما قيل في تفريغ هذا الأسلوب إلى أنماط من طبيعته فكل منها يكسب المخاطب شحنة روحية وعاطفية سامية تقوي لديه طبيعة الفعل، والقدرة على إنجازه، ما يؤكد أن جماليةالأساليب البلاغية ليست مجرد فعل ثقافي نظري...

وبناء عليه فجمالية هذا الأسلوب تظهر في ثراء الدلالة وتنوعها على الرغم من وجود الشكل المتماثل في الصياغة. وقد لاحظنا أن أسلوب الإباحة أصل

معانٍ عدة في أسلوب الأمر المجازي ومن ثم تجتمع فيه عدة وظائف وأهداف. وأول هدف يظهر لدينا أنه يحمل صورة التشريع للقوم ﴿كلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض...﴾ أو قوله: ﴿يا بني آدم خذوا زِيْنَتكم عند كل مَسْجدٍ وكلُوا واشربوا ولا تُسْرفوا إنَّه لا يحبُّ المسرفين﴾ (الأعراف 31/7).

فأساليب الأمر جاءت لتبين للإنسان أن يأخذ نفسه في عباداته وغيرها بأحسن هيئة؛ وأباحت له التصرف في ذلك وفي اختيار ما يشاء من أطيب الطعام والشراب ونهته عن الإسراف... فكل طعام أو شراب وصل إلى حد الشره إنما هو حرام؛ والأصل فيه التحليل؛ إن لم يكن من مصدر حرام. فالوظيفة الخلقية في النّص القرآني تأخذ طريقها إلى أسلوب الأمر... ليصبح نمطاً من التشريع السامي المختزن في صميم الإباحة في الأكل والشرب واللباس... ولهذا رأى الزمخشري وجه التشريع في الإباحة، ولم يشر إلى غيره مما سبقت كلمتنا فيه... فجاء بقوله تعالى: ﴿وإذا حَلَلْتم فاصطادوا﴾ (المائدة 2/5) وقال: ﴿فاصطادوا: إباحة للاصطياد بعد خَطْرِه عليهم، كأنه قيل: وإذا حللتم فلا جُناح عليكم أن تصطادوا﴾[14].

ولكن الأطر الجمالية ماثلة في سياق التعبير الفني الذي تحوَّل من اتجاه إلى اتجاه؛ وفي هذا التحوّل كان يقوم على التناسب في بناء الجملة، ودقة تعبيرها عن الجوهر الذي تحمله.

فالغايات الوظيفية غايات جمالية فنية في الوقت الذي كانت غايات نفسية وخلقية وفكرية... وقد برزت في امتداد آماد الكلام واتساع مجاله وفق مفهوم الانزياح الدلالي، ولا سيما في البلاغة القرآنية. وهذا ما جعلنا نُفرد لبعض المفسرين جملة من المعاني التي أبدعوها، كالزمخشري المعتزلي المذهب.

21. معان أخرى عند الزمخشري:

لم يتبع الزمخشري منهج البلاغيين في تبويب معاني أَساليب الأمر المجازي وإن اشترك معهم في بعض المعاني التي تناولها في جملة من الآيات القرآنية

كمعنى التهكم والاستهزاء والتبكيت و التكوين والإباحة والدعاء ضَعْفاً واستكانة وانتقاماً... والوعيد والتهديد... وذلك مما أشرنا إليه سابقاً.

وحين افترق عنهم في بعض المسميات أضاف إليهم وجوهاً بلاغية أخرى لم يتعرضوا لها استمدّها من تأمله للأسلوب القرآني في الأمر...

فقد توقف عند تصوير الحالات النفسية للآمِر و المأمور ورأى فيها لطائف بلاغية مثل:

1 ـ **الحَيْرة والاضطراب**: فقد رأى هذا المعنى في قول أصحاب النار لأصحاب الجنة: ﴿أنْ أفِيْضوا علينا من الماءِ﴾ (الأعراف 50/7) فما هم عليه من حَيْرة واضطراب والنار تأكل جلودهم جعلهم يطلبون ذلك الطلب من المخاطب بعد أن يئسوا من الإجابة له [15].

2 ـ **الإنكار والاستبعاد**: وهو ما ظهر من قوم (هُوْد) في خطابه، ﴿فَأتِنا بما تَعْدُنا إن كنتَ من الصادقين﴾(الأعراف70/7) قال الزمخشري: "يريدون الاستهزاء لأنهم كانوا يعتقدون أن الله تعالى لا يرسل إلا الملائكة". فهم ينكرون أن يبعث الله رسولاً بشراً، ويستبعدون ذلك[16].

ومن الأمور البلاغية البديعة التي رآها في أساليب الأمر خروج الأمر إلى (تصوير شرف المأمور وارتفاع منزلته)... وهذا كثير في أسلوب القرآن الكريم[17]، كقوله تعالى: ﴿وبَشِّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات، أنَّ لهم جنَّاتٍ تجري من تحتها الأنهار﴾ (البقرة 25/2)... قال الزمخشري: "فإن قلت: من المأمور بقوله تعالى: وبشر؟ قلت: يجوز أن يكون رسول الله (ﷺ)، وأن يكون كل أحد كما قال (عليه الصلاة والسلام): لبَشّر المشائين إلى المساجد في الظُّلَم بالنُّور التام يوم القيامة]. وهذا الوجه أَحْسن وأَجْزل، لأنه يؤذِن بأن الأمر لِعظَمِه وفخامة شأنه محقوق بأن يبشر به كلُّ من قَدَر على البشارة به"[18].

بهذا كله اختلف الزمخشري في زاوية الرؤية للاتجاه البلاغي وفق مفهوم الآمر والمأمور وحالتهما النفسية، ومن ثم وفق حالة الدلالة في الأمر... ولكنه

التقى البلاغيين في معاني الأمر المجازي التي خرج إليها غيرَ مرَّة...

ولا يمكن لباحث أن يحيط بأساليب الأمر المجازية ومعانيها عند دارسيها لتعدد الرؤى والمواقف... وكلها تؤكد عظمة أساليب العربية في جماليتها المثيرة. فالوظيفة أياً كان نوعها تغدو مثيرة في عقل المتلقي... والجمالية لم تعد وحيدة الاتجاه لديه في معيارية التركيب النحوي، ومن ثم في انزياح اللغة عنها... فكل أسلوب من أساليب الأمر المجازية قدّمت نفسها في إطار الشروح والإيضاح مرة، وفي إطار التعليل مرة أخرى... وهكذا...

فالترتيب في الأسلوب لم يكن وحيد الاتجاه وإنما يحمل من ثنائية الحركة في الفعل ما يوحي به بتموجات الحالة الشعورية والفكرية للآمر. ومن هنا تبين لنا أن ماهية الإباحة في صورة الأمر ليست ذات اتجاه واحد في حركة الشعور أو في دلالة المعنى... فظهرت للتشريع وندبت المأمور لأمر ما، أو الإذن له أو الإكرام أو الامتنان... بل لعل صور الأمر كلها توحي بذلك، وإن غلب عليها شكل الجملة القصيرة والأسلوب الموجز المكثف الدلالة بحسب مناسبة المقام كما أكده البلاغيون العرب.

فجمالية أسلوب الأمر أكدت أننا لا نتعامل مع جملة لغوية صمَّاء؛ وإنما نتعامل مع جملة فاعلة وحيوية في استحضار المعاني المتعددة وبيان وظيفتها. وهذا نفسه الذي قامت عليه الدراسات الأسلوبية الحديثة... وكان القدماء قد تنبهوا على الجانب الشكلي في النسيج الفني، فالشاعر كالنَّساج الحاذق الذي يُفَوّف وَشْيَهُ؛ ثم جاءت البلاغة لتوضح ذلك دون أن تنسى القصدية من أي عمل فني[19]... ويعدُّ عبد القاهر الجرجاني متفرداً في هذا الجانب؛ إذ قلَّبه على وجوه بلاغية جمالية لافتة للنظر ليثبت مفهومه لنظرية النظم التي تهدف إلى تَوخّي معاني النحو كما في قوله: "فكما أنك ترى الرجل قد تهدَّى في الأصباغ التي عمل منها الصورة والنقش في ثوبه الذي نسج إلى ضَرْب من التخير والتدبّر في أنفس الأصباغ وفي مواقعها ومقاديرها وكيفية مزجه لها وترتيب إياها إلى ما لم يهتد إليه صاحبه، فجاء نقشه من أجل ذلك أعجب وصورته أغرب

كذلك حال الشاعر والشاعر في توخيهما معاني النحو ووجوهه التي علمت أنها محصول (النظم)"[20].

وفي ضوء ما تقدم يثبت لنا أن أسلوب الأمر كغيره من أساليب العربية يرتبط بوعي العربي وما يختزنه من نتاج أدبي لغوي/نحوي وبلاغي؛ فكري واجتماعي... نفسي وخلقي... فأي بنية كلامية ليست بنية محايدة، ولا هي منسلخة عن التراث لديه ولدينا؛ ثم هي تثرى بالدراسات الجديدة التي تنفتح على ثقافة الآخر وماهية تراثه... ومن ثم فإن التفكير البلاغي عند العرب يتماهى في ذلك كله إن لم نقل: إنه يمثّل الجوهر الأكثر اتقاداً فيه... ثم إن وعي الممارسة البلاغية واستيعاب أشكالها يبرز قيمة ما يملكه العرب في هذا الاتجاه أو ذاك... وهذا ما يؤيده حديثنا عن أساليب الإنشاء المتبقية واحداً تلو الآخر.

obeikandl.com